الترجمة بوصفها أداة سياسية:

أولى النصوص المترجمة من اللغة العربية إلى اللغة القشتالية مثالا

أ.م.د. خايمه كولاوت كروديرو

كلية الفيلولوجيا/ جامعة سلامنكا (إسبانيا)

مقدمة:

من المعروف جدا أن الثقافة الاسبانية واللغة الإسبانية على حد سواء كانتا متأثرتين بالعالم العربي والإسلامي الأندلسي بسبب الوجود الإسلامي الذي استمر ثمانية قرون متواصلة في شبه الجزيرة الإيبيرية، فضلاً على التعايش بين المسيحيين والمسلمين في مناطق مختلفة من الأندلس وفي الممالك المسيحية الأخرى. تحدد التأثير الثقافي بفضل ترجمة النصوص المختلفة التي تحققت من اللغة العربية إلى اللغة القشتالية بدءً من القرن الثالث عشر الميلادي. وثمرة لهذه الترجمات وللتأثير الثقافي، تركت اللغة العربية أثراً عميقا في اللغة القشتالية إلى حدٍ يمكن أن نقول فيه: إن اللغة القشتالية – الأسبانية في يومنا هذا –واحدة من أقرب اللغات إلى اللغة العربية من بين جميع اللغات ذات الأصول غير السامية المستخدمة في العالم. وحقاً، يصل عدد الكلمات الموجودة في اللغة الأسبانية إلى نحو ٤٠٠٠ كلمة تنحدر من اللغة العربية. وهو ما يطلق عليه بالـ{arabismo}.

قصدت في الدراسة أن أحقق مراجعة مختصرة لتاريخ أولى الأعمال التي ترجمت مباشرة من اللغة العربية إلى اللغة القشتالية وتقديم تحليل موجز ودقيق للأسباب والأهداف التي وقفت وراء اختيار ترجمة تلك الأعمال تحديداً إلى اللغة القشتالية.

وبحسب ذلك قسمت هذه الدراسة على ثلاثة أقسام: نصوص دينية ونصوص أدبية ونصوص علمية، إذ عمدت فيها إلى عرض أولى النصوص المترجمة من كل نوع، على الرغم أن هذه النصوص المترجمة لم تحظ على الدوام بأهمية كبيرة.

إن ترجمة النصوص العربية الى اللغة الاسبانية كانت من الواضح تهدف أصلاً إلى غايات سياسية، وأن المحرضين على ترجمة هذه النصوص ممن ينتمون إلى الطبقات الحاكمة كانوا هم من يقررون أي كتب ستترجم وإلى أية لغة ستترجم، وذلك وفقاً لمصالحهم وطموحهم الشخصي.

النشاط الترجمي في الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية: مدرسة طليطلة للترجمة:

بدأت أوربا المسيحية في أواسط القرن العاشر للميلاد باكتشاف العلوم العربية وايلائها اهتماما كبيراً، لا سيما علوم الرياضيات والفلك، التي تعامل معها الرومان على نحو قليل أو أنهم لم يتعاملوا معها مطلقاً، ومن ثم تكاد هذه العلوم تكون غير معروفة في أوربا في ذلك الوقت[١]. ولهذا السبب، بدأ في هذا العصر ترجمة عدد كبير من الكتب والمؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية – لغة نصوص الدين المسيحي المثقفة – إذ ترجمت أولى النصوص في "الثغر الهسباني"، أحد الأقاليم الممتدة بين نهر ايبرو (Ebro) وجبال البيرينيه (Pirineos) [٢]. ولوحظ أن هذا النشاط كان مفضلاً بسبب تفكك الخلافة في قرطبة عام ١٠١٣ ميلادية تبعه تقلب الوضع السياسي فيها، مما كان دافعاً لعدد كبير من اليهود والمستعربين وكذلك المسلمين كي يهاجروا إلى شمال شبه الجزيرة الإيبيرية. وبهذا تحولت الثغر الهسباني الى منطقة لقاء وانتشار للثقافة العربية اليهودية أيضاً، ومن ثم إلى مركز ثقافي رئيس لكلفة أنحاء أوربا. إن هذا الازدهار الثقافي في وادي ايبرو تعزز مع سيطرة الموحدين على الحكم في الأندلس إذ ساهم التعصب الديني إلى هروب عدد كبير من اليهود والمستعربين إلى الشمال[٣].

وقبل وقت قصير من وصول الموحدين إلى سدة الحكم، أي في العام ١٠٨٥ كان الملك الاسباني ألفونسو السادس (Alfonso VI) قد فتح مدينة طليطلة (Toledo). وبتأثير ظروف محددة تحولت طليطلة إلى مركز ثقافي كبير آخر. ففي بداية القرن الثاني عشر للميلاد، بدأ عدد من العلماء بالعمل في طليطلة تحت حماية رئيس الأساقفة دون رايموندو (Don Raimundo) (١٢٥٢ م) الذي يعد مؤسس ما تسمى بمدرسة طليطلة للمترجمين[٤]. وإذ نتحدث بخصوصية عن ذلك، فلا ينبغي إطلاق هذه التسمية على "المدرسة" المذكورة، ومن الطبيعي لا يمكن

تأسيس أي وجه للمقارنة بينها وبين بيت الحكمة في بغداد الذي تأسست بدايات القرن التاسع للميلاد والذي ننسب إليه من بين أشياء كثيرة وصول جزء كبير من العلوم والثقافة الأغريقية والهندو – ايرانية الى العالم العربي وأوربا فيما بعد. ليس من الضروري أن نذكر هنا مميزات المؤسسة التي أنشأها الخليفة المأمون، ولكن يكفينا القول إنه لا توجد مؤسسة مماثلة أنشأت في قشتالة. وأما فيما يتعلق بالمدرسة الطليطلية فقد كانت تفتقر إلى التواصل والتنظيم، وكان الرابط الوحيد الذي يجمع المترجمين هو الرابط الجغرافي ورعاية الأدب حسب. وحقا فأن بعض المترجمين حتى لم يعملوا في طليطلة. فأنصار الأدب لم يتمكنوا أبداً من تحويل وظيفتهم إلى وظيفة مؤسساتية، وأقتصر نشاطهم على انجاز ترجمات تتفق مع مصالحهم الشخصية [٥].

أحد أهم أنصار الأدب هو ملك قشتالة ألفونسو العاشر(Alfonso X) ، المسمى بألفونسو العالم، شخصية لها دور رئيس في الموضوع الذي نحن بصدد دراسته. في العام ١٢٥٢ أصبح الفونسو العاشر ملكاً على قشتالة وقد واصل العمل الذي بدأ به دون رايموندو وأتباعه، لكن بإضافة خصوصية جديدة: تحت اندفاعه ورعايته للأدب بدأت ترجمة النصوص العربية إلى اللغة القشتالية (اللغة القشتالية هي اللغة الأسبانية)– بدلاً من اللاتينية، كما كان معتاداً عليه – ولهذا استخدم العديد من المترجمين اليهود الذين كانوا يجيدون اللغة العربية بطلاقة وكذلك العرب المرتدين أو المستعربين[٦]. تعددت في ذلك الوقت اللغات والديانات في مدينة طليطلة أكثر من مدن أخرى مثل قرطبة أو إشبيلية. علينا التأكيد أنه في عصر الفونسو العاشر أيضاً من الصواب أن نشير إلى "مترجمي بلاط الفونسو العاشر" على أن نتحدث عن "مدرسة المترجمين" ومثالنا في ذلك الدراسات التي وضعها المستشرق مياس فاييكروسا (Millás Vallicrosa) [٧].

ترجمة النصوص الدينية :

وظفت ترجمة النصوص الدينية في العصر الوسيط بشكل رئيس للدفاع. أي أن اليهود والمسيحيين والمسلمين كانوا يعمدون إلى ترجمة كتب دينية تنتقد ديانات أخرى منطلقين من الأسس التي بنيت عليها الديانات. وهي ترجمات منحازة لافتقارها إلى الجودة، ويمكن القول: إنها ترجمات تغير وتتلاعب بالنصوص الأصلية بشكل واضح[٨]، وينطبق هذا الأمر على الترجمات اللاتينية والقشتالية . وبهذه الطريقة تكفل رئيس الأساقفة رايموندو بموضوع

ترجمة النصوص من العربية لإيجاد طريقة يهاجم فيها الإسلام فكرياً[٩]، لكون المسيحية كانت تفشل على الدوام في محاولة فرض عقيدتها بالقوة وخير مثال على ذلك الحروب الصليبية .

لذلك، عندما نبدأ بمراجعة لأولى الترجمات التي أنجزت الى القشتالية، سنستثني موضوع ترجمة القرآن إلى القشتالية، لأن هذا الكتاب ترجم الى اللغة القشتالية بعد مرور قرنين من انتهاء مدة حكم الملك الفونسو العاشر.

عندما بدأت مهمة تفنيد عقيدة المسلمين من خلال استيعاب نصوصهم الدينية، كان من الواضح وجود حاجة إلى ترجمة وفهم النص القرآني. وتجاهلاً لمفهوم استحالة ترجمة القرآن الذي بحث فيه العلماء والفقهاء المسلمين منذ عهود مبكرة، تحققت الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن في شبه الجزيرة الإيبيرية. وبناءً على طلب رئيس الدير الكلوني بيدرو المبجل (Pedro el Venerable) المتوفى في العام ١١٥٦، قام بهذه الترجمة الراهب الانجليزي روبرت أوف كيتون [١٠] (Robert of Ketton) في العام ١١٤٣. وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهت لاحقاً إلى مستوى هذه الترجمة – وللأسباب التي ذكرناها – لكنها كانت ترجمة سارية المفعول حتى القرن السابع عشر، لكونها أيضاً تعد أول ترجمة مطبوعة في مدينة بازل في العام ١٥٣٤[١١]. وبعد ترجمة ثانية إلى اللاتينية أنجزها في القرن الثالث عشر ماركو دي توليدو (Marco de Toledo)، تحققت أول ترجمة للقرآن نحو اللغة القشتالية:

وكان ذلك في أواسط القرن الخامس عشر عندما انتصر الكاردينال خوان دي سيغوبيا (Juan de Segovia) على الفقيه عيسى جيديلي (Yça Gidelli)، الذي كان يمثل واحدة من السلطات الدينية المعروفة في مجتمع المدجنين – أي العرب الذين دُجّنوا في الأندلس بعد سيطرة الإسبان عليها – في سيغوبيا ليذهب الى سافوا (Savoy) في فرنسا وهناك تبدأ أول ترجمة للقرآن نحو القشتالية تحت إشرافه. أما في العام ١٤٥٦، فقد أثمر هذا التعاون عن إنجاز نسخة بثلاث لغات للقرآن: العربية واللاتينية والقشتالية، لم يصلنا منها سوى بعض فقرات من الترجمة اللاتينية. وبوصفه الأحداث، على خلاف ترجمة روبرت أوف كيتون، فلا شك أن المشروع الذي طرحه خوان دي سيغوبيا كان يهدف أولاً إلى خلق فهم متبادل وسلمي بين المسلمين والمسيحيين كما يظهره العمل نفسه باعتماده على مساعدة أحد أشهر المسلمين في مملكة قشتالة، على الرغم من أننا يجب أن نعترف بأن هذه المبادرة السلمية جاءت في الأقل، في جانب منها نتيجة

لحدث تاريخي جديد وكبير الأهمية بالنسبة إلى أوربا المسيحية: فتح الأتراك القسطنطينية في العام ١٤٥٣ [١٢]. وعلى الرغم من اختفاء ترجمة عيسى جيديلي في الوقت الراهن، غير أنها بالتأكيد تركت أثراً في الكثير من التراجم الأخرى التي أنجزت في القرنين الخامس والسادس عشر، إذ كتب البعض منها "بالعجمية" (aljamía) أي باللغة القشتالية المكتوبة بأحرف عربية. ويعتقد أن هذه الترجمات القشتالية أنجزها الفقهاء المسلمين للمؤمنين الذين نسوا اللغة العربية مع تقادم الأجيال والذين لا يفهمون سوى اللغة القشتالية [١٣]. ينتمي إلى هذا النوع من الترجمات أقدم نص حفظ كاملاً، أعني "مصحف طليطلة"، وهو ترجمة قشتالية بأحرف لاتينية أنجزها أحد المسلمين غير المعروفين في العام ١٦٠٦ التي تتضمن أيضاً تفسيرا مضافاً [١٤].

وفضلا عن ترجمة القرآن، فثمة نص ديني آخر ينطوي على أهمية خاصة تمت ترجمته إلى القشتالية: وهو النص الذي يتناول قصة الإسراء والمعراج الذي ترجم إلى القشتالية أيضاً تحت عنوان "*El libro de la escala*" **(كتاب السلّم)**. ومن المعروف تمام المعرفة أن هذه القصة تستند أساساً على آيات قرآنية مختلفة [١٥] وطورت بشكل موسع من خلال الكثير من الأحاديث والتفاسير. وهكذا عند جمع كل المصادر يمكن صياغة قصة منسقة وكاملة على الرغم من الاختلافات التي تظهر هنا وهناك لهذه القصة.

في قشتالة حدث الشيء نفسه، إذ كان هناك عدد من نسخ القرآن المترجمة وكانت القصة مروية في الأحاديث والتفاسير التي كانت شائعة في الأندلس في تلك الحقبة وبالتالي فإنها كانت معروفة لدى مترجمي طليطلة. إذن من المؤكد أن النسخة المترجمة إلى القشتالية كانت تستند مبدئيا إلى المصادر نفسها.

في العام ١٢٧٧ ترجم اليهودي أبراهام الطليطلي (Abraham de Toledo)، الذي ينتمي إلى حلقة مترجمي الفونسو العاشر، الإسراء والمعراج إلى القشتالية. ولا نعلم هل كانت النسخة العربية الأصلية عملا كاملاً مستقلاً أم أنها نصوص مختلفة. ويبدو مؤكداً أن المترجم اعتمد في عمله على مصادر عربية فقط، ومن الممكن جداً انه اتبع في البعض من أجزاء هذا العمل **كتاب المعراج** الذي وضعه الصوفي القشيري المتوفى عام ١٠٧٢ م[١٦].

وعلى الرغم من ذلك استخدم بونافونتورا دي سيينا (Buenaventura de Siena) بعد وقت قصير الترجمة القشتالية الأولى هذه لإنجاز ترجمة لاتينية وأخرى فرنسية

أضاف إليهما نصوص مختلفة تنتمي إلى مصادر مسيحية. ونتيجة لهذا المزيج من المصادر ظهرت نسخة بعيدة عن النص العربي الأصلي لهذه القصة، حيث الإسهاب والتغيير والتلاعب في نصوصها بشكل متعمد، فضلاً على الهدف الواضح في نقد ومهاجمة الدين الإسلامي من خلال نشر هذا النص [١٧].

وللأسف انتشرت النسخة اللاتينية والفرنسية بشكل واسع في جميع أنحاء أوربا إلى الحد الذي بلغ ببعض الكتاب المسيحيين من إعطاء **كتاب السلّم** قيمة تماثل في أهميتها القرآن، معللين أن كلا الكتابين كانا محض بدعة من النبي محمد وأنهما غير منزلين بأي شكل من الأشكال من الله [١٨].

هكذا كان انتشار هذا النص، الذي أصبح والى يومنا هذا، وكما نعرف نحن، أحد أهم المصادر الأدبية الأساسية التي استلهم منها دانتي أليغييري (Dante Alighieri) فكرة كتابة عمله **الكوميديا الإلهية** (*Divina Commedia*) في بدايات القرن الرابع عشر، كما يشير إلى ذلك المستعرب الأسباني آسين بالاثيوس (Asín Palacios) في دراسة استثنائية مدهشة أجراها بعنوان **علوم الآخرة الإسلامية في الكوميديا الإلهية** [١٩] التي أثار نشرها في عشرينيات القرن الماضي غضب ورفض دارسي دانتي والمستعربين الايطاليين، عندما أشاروا إلى الكاتب المذكور على "أنه رمز من رموز المسيحية والايطالية أيضا" [٢٠].

ومن بين جميع الترجمات المذكورة **لكتاب السلّم**، ثمة نسخة واحدة فقط ما زالت باقية إلى يومنا هذا هي النسخة اللاتينية التي ترجمها بونافينتورا دي سيينا [٢١].

أدب الحكمة (آداب):

جنس أدبي آخر استحق اهتماماً خاصاً في عصر الترجمة الالفونسينية هو الأدب، المسمى في بعض المناسبات "بأدب الحكمة"، ويمثل أحد الأجناس التعليمية المعروفة في اللغة العربية بالآداب.

وكان أول كتاب تُرجم إلى القشتالية ينتمي إلى أدب الحكمة **كتاب الحيوانات التي تصيد** أو *Libro de Moamín* الذي يتحدث عن موضوع الصيد بواسطة الباز أو بواسطة الحيوانات، ويعود لكاتب بقي مجهولاً زمنا طويلا، على الرغم من أنه برز مؤلفاً لكتابين في الأقل يتناولان موضوع الصيد بواسطة الباز، وقد عرف هذان الكتابان في قشتالة ونالا إعجابا كبيرا[٢٢]. وقد اكتشف مؤخرا بأن الـ *Libro de Moamín* ما هو في الحقيقة إلا النسخة القشتالية **لكتاب الجوارح** المنسوب إلى محمد بن عبد الله بن عمر البيزار، وهو أحد خبراء الصيد بواسطة

الباز– وعالم الفلك أيضاً – عاش في بغداد في القرن التاسع للميلاد. يتناول العمل النظرية والتطبيق في صيد الحيوانات وبشكل رئيس الطيور والكلاب. تُرجم الكتاب إلى القشتالية في عهد الفونسو العاشر، وريث العرش الذي حث على ترجمته، إذ ترجمه أبراهام الطليطلي نفسه، إذ قام بترجمة أمينة جدا للنص الأصلي، احترم فيها الأماكنية الشرقية وكذلك الأسماء العربية للطيور. اكتملت الترجمة في العام ١٢٥٠، وكان للكتاب انتشار واسع في أوربا – وقد ترجم إلى اللاتينية والى اللغات الرومانية – وعدَّ مرجعا لكتب أخرى تتناول الموضوع نفسه [٢٣].

مع أن الكتب التي تتناول موضوع فن الصيد بواسطة الباز يمتلك علاقة أكبر مع العلوم والفنون منها مع الأدب المفهوم بوصفه خيال قصصي، فإننا نعتقد أنه من المناسب الإشارة إلى الـ *Libro de Moamín* في هذا الجزء إذ نتبع في ذلك رأي الأستاذة مينوكال (Menocal)، التي ترى بأن النسخة العربية الأصلية في الحقيقة تحيلنا إلى الجوهر الحقيقي لـ الأدب، لأن كتب الصيد كانت تعكس مظهراً معبراً لحياة البلاط الرفيعة، لذلك فإنها تقترح إتباع سلسة من القواعد والأمثلة مرتبطة مع سلوك وأخلاق المجتمع المتحضر والمثقف[٢٤]. ولهذا، تعد ترجمة هذا العمل متسقة مع المشروع الثقافي الذي أسس له الفونسو العاشر الذي سنشير إليه فيما بعد.

بعد عام واحد فقط، ترجم إلى القشتالية عمل يمكن أن يُعد حقاً "أدب" بالمعنى الدقيق للكلمة: كتاب **كليلة ودمنة** (*Calila y Dimna*)، وهو حقيقةً عمل يمثل النوع الأدبي. وزيادة على ذلك تعد معروفة السيرة الطويلة لهذه الحكاية – أو لمجموعة الحكايات هذه – التي تعود إلى القرن الرابع الميلادي، عندما كانت تشكل جزءً موسعا من بحث هندي كتب باللغة السنسكريتية، ونسختها العربية المعروفة هي نسخة ابن المقفع (القرن الثامن م) التي ترجمها عن اللغة الفهلوية.

وكما ذكرت فقد أخذ الفونسو على عاتقه ترجمة **كليلة ودمنة** الى القشتالية، إذ أُنجزت هذه الترجمة في العام ١٢٥١، وفي هذا التاريخ كانت تطوف حول الأندلس ترجمة أخرى إلى العبرية [٢٥]. وقد ضاعت تلك الترجمة التي أنجزت إلى القشتالية ولا نعرف من هو المترجم، و يعتقد أنه أبراهام الطليطلي اليهودي، الذي أنجز لحساب الملك الفونسو العاشر العديد من الترجمات على مدى ثلاثين عاماً[٢٦].

ولا شك في أن الفونسو العاشر لم يكن يرى كتاب **كليلة ودمنة** كتابا بسيطا يتحدث عن قصص أو خرافات، بل كان في الحقيقة إيجاز للحكمة والأخلاق، وعلى حسب

بعض الكتاب، كان ينبغي أن يتطابق مكانه في البلاط تماما مع الكتب التي وضعت ضمن النوع الأدبي المسمى "نصيحات الملوك"(٢٧).

ويصعب التكهن بمعرفة الأسباب التي دعت الشاب الفونسو العاشر إلى اختيار هذين العملين تحديدا، وبخاصة **كتاب الجوارح**، فكتاب **كليلة ودمنة** كان يحظى بشهرة معينة في شبه الجزيرة الإيبيرية منذ زمن. وعلى الرغم من ذلك، يبقى من المهم البحث في الأسباب التي قادت الفونسو إلى تشجيع ترجمة هذين الكتابين وكتب أدبية أخرى.

ومتابعة جديدة للدراسة التي قامت بها الأستاذة مينوكال، يبدو واضحاً القصد النهائي الذي سعى الملك إلى تحقيقه: خلق إمبراطورية جديدة دعامتها الثقافة القشتالية، وأن تكون هذه الثقافة مستندة إلى لغة مثقفة بديلة عن اللغة اللاتينية. لذا، وبهدف تحويل اللغة القشتالية بوصفها لغة امبراطورية، استهى جعلها مستودعا لسائر العلوم السائدة في ذلك العصر. وبهذه الطريقة لم تتركز جهود الملك في موضوع أو نوع محدد، بل إن كتابة نصوص أدبية وعلمية وقضائية خاصة وترجمتها إلى اللغة القشتالية كانت تعد خطوة حاسمة لرفع دعامات الامبراطورية الجديدة الثقافية وبلوغ أوج تطلعاتها السياسية.

جدير بالملاحظة أن عاصمة الامبراطورية هي طليطلة، وهي ملتقى تتعايش فيه بشكل مفتوح مختلف الديانات، بغالبية من السكان اليهود والمسلمين، وبوصفه مجتمعا مهما من المستعربين، أي المسيحيين الناطقين بالعربية الذين كانوا قد عاشوا تحت سيطرة المسلمين على مدى أجيال عديدة، لذا فلا ينبغي فهم المستجدات الثقافية على أنها مستجدات ذات جذور مسيحية فحسب، بل من المناسب جدا الحديث عن ثقافة هيسبانو. عربية. كان هذا المشروع مختلفاً جذرياً عن مشروع الترجمة إلى اللاتينية في العصور السابقة، المرتبط بحضور رجال دين من كافة أرجاء أوربا إلى الأراضي القشتالية، كانت الثقافة القشتالية فيه غير بارزة تماماً (٢٨).

وعلى أي حال، تبع ترجمة **كليلة ودمنة** إلى القشتالية ترجمات أخرى لأعمال تنتمي إلى النوع التعليمي والأخلاقي. ومن بين أكثر هذه الأعمال شهرة كتاب *Sendebar* المتضمن مجموعة شهيرة من القصص – ويسمى هذا الكتاب في نسخته العربية بـ **السندباد الحكيم** – الذي ترجم في العام ١٢٥٣، عندما لم تكن هذه المجموعة من القصص جزءاً من كتاب **ألف ليلة وليلة**، وكذلك كتاب *La doncella Teodor* المطابق لحكاية الجارية **تودد** في كتاب **ألف ليلة وليلة** أو الـ *Libro de*

los buenos proverbios، وهو ترجمة لكتاب **أدب الفلاسفة** لحنين بن إسحاق[٢٩].

كان لهذه الترجمات تأثيراً مهماً في فن الرواية وفن القصة القروسطي القشتالي والأوربي: فإذا أمعنا النظر في كتاب **كليلة ودمنة** لوجدنا بسهولة آثاره في قصصهم وكذلك لوجدنا الكثير من الملامح الحكائية في العديد من الأعمال المعاصرة واللاحقة لتلك الحقبة مثل قصة *El Conde Lucanor* لدون خوان مانويل (Don Juan Manuel) في القرن الرابع عشر الميلادي، أو في العمل الفرنسي **رينار الثعلب** (*Roman de Renart*) [٣٠].

نصوص علمية:

ليس من السهولة أن نعرف بالضبط ما هي أولى الترجمات العلمية التي تحققت من اللغة العربية الى اللغة القشتالية. إذ إن ترجمة الكتب العلمية العربية– كما ذكرنا– بدأت قبل قرون قليلة. ولما كانت هذه كمية الترجمات إلى اللاتينية والقشتالية وكذلك إلى العبرية المتحققة في القرون الوسطى– قبل عصر الفونسو العاشر– إذ خصص البروفيسور خوان فيرنيت (Juan Vernet) لهذا الموضوع عملا موسعاً بعنوان **ما تنسبه أوربا إلى الإسلام في إسبانيا** (*Lo que Europa debe al Islam de España*) وهو يتحدث فيه عن المعارف المختلفة التي وصلت إلى أوربا بواسطة الأعمال المترجمة من اللغة العربية خلال القرون الوسطى التي تصب في مجالات متنوعة جدا مثل علوم الفلك وعلوم التنجيم والرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلوم الطب والنبات.

ومن جديد فإن أولى الترجمات التي تحققت مباشرة من العربية إلى القشتالية كانت في عصر الفونسو العاشر الحكيم. وكما نعلم أن ملك قشتالة كان معنيا بشكل خاص بكتب علوم الفلك وكتب علوم التنجيم (غير المنفصلة في تلك الحقبة) وكتب السحر أيضا التي عدت منذ ذلك الحين علماً مرتبطاً بوضوح مع علم التنجيم [٣١]. فعلى سبيل المثال في العام ١٢٣٤، يعتقد بأنه أمر بترجمة دراسة عربية حول تأثير النجوم في الأحجار. هذا النص المسمى باللغة القشتالية **اللابيداريو** (*Lapidario*) معروف جدا في أيامنا هذه، لكننا لا نعرف أي شيء عن كاتبه العربي الأصلي، على الرغم من إمكانية كونه ترجمة في الوقت نفسه لكتاب كلداني قديم[٣٢].

ومما لاشك فيه أن واحدة من أولى كتب الفلك المترجمة إلى القشتالية كان **كتاب البارع في أحكام النجوم** لعلي بن أبي الرجال، ترجمة أنجزها اليهودي يهودا بن موشي (Yehuda ben Moshe) في العام ١٢٥٤ وكانت بعنوان *El libro conplido de los iudizios de las*

estrellas[٣٣]. وكما يشير الأستاذ بيرنيت انه من المؤكد أن الفونسو العاشر كان لديه اهتمام خاص بهذا العمل، حيث عرف عنه أن كاتبه العالم كان قد درس في بغداد وأصبح منجّم الأمير المعز في القيروان (١٠١٦ م) [٣٤].

ثمة كتاب آخر ترجم في الحقبة نفسها وهو **كتاب صور الكواكب الثابتة** لعبد الرحمن الصوفي المتوفى في العام ٩٨٦ م. ففي العام ١٢٥٦ ترجم كل من يهودا بن موشي وغيجين أريمون داسبا (Guillén Arremón Daspa) هذا الكتاب وجاءت الترجمة بعنوان *Libro de las figuras* – وكانت ترجمة حرفية تماماً –. ومما يدعو إلى الفضول، أن الفونسو العاشر رأى بأنها ترجمة تنطوي على الكثير من العيوب فقام بتصحيحها بنفسه بعد مضي عشرين عاما، ساعده في ذلك فريق من المترجمين وخبراء علم الفلك[٣٥].

وجدير بالاهتمام كتاب آخر يتناول موضوع الآلات المستخدمة في علم الفلك: **كتاب العمل بالصفيحة الزيجية** الذي وضعه عالم الفلك الأندلسي الزرقالي المتوفى في العام ١١٠٠، والمعروف بـ Azarquiel في قشتالة. هذا الكتاب الذي يذكر بالتفصيل بناء واستخدام اسطرلاب اكتشفه الكاتب، المسمى بالصفيحه الزرقالية، كان قد ترجم إلى اللاتينية في العام ١٢٣١. أوعز الفونسو العاشر بترجمة هذا الكتاب إلى القشتالية إلى فرناندو الطليطلي (Fernando de Toledo) – ومن المحتمل أن يكون أحد اليهود المرتدين– في حوالي العام ١٢٥٦. ومع ذلك ومثلما حدث مع **كتاب صور الكواكب الثابتة،** كانت ترجمة كتاب الـ *Azafea* (وهو مصطلح مشتق من كلمة "الصفيحة") غير مقنعة بالنسبة للملك العالم، وراجع هذه الترجمة بعد نحو عشرين عاماً، أي في العام ١٢٧٧، أبراهام الطليطلي وبرناردو العربي (Bernardo el arábigo) [٣٦].

وبقطع النظر عن الرغبة الواضحة في كسب معارف جديدة، من المحتمل أن تكون الأسباب التي حثت الفونسو العاشر على ترجمة هذه الكتب هي ذاتها التي ذُكرت في كتب الأدب، بمعنى جعل اللغة القشتالية لغة مثقفة ومستودع لخزين علمي مهم. ولا شك في أن ترجمة هذه الكتب وكتب أخرى تشكل جزءاً من مشروع طموح كان هدفه معرفة واكتساب أفضل أداة فلكية (الاسطرلاب والصفحة السماوية أو الـ *Azafea* نفسه). وكما أكد أيضا كتاب آخرون، يأتي هذا الاهتمام العلمي الخاص من الاستخدام العملي للعلوم المكتسبة: وتحديدا، بأن الملك يستطيع توجيه أفعاله وقراراته من خلال معرفة ما تحدده الإشارات الفلكية وفيما تتمكن من التأثير في المستقبل من

خلال استخدام معارف سحرية – فلكية [٣٧].

الخاتمة:

يعد الهدف الرئيس من هذه الدراسة تقديم إيجاز سريع عن أهم المظاهر الممكنة التي أحاطت بأولى الترجمات المنجزة من اللغة العربية إلى اللغة القشتالية، مركزين جهدنا في الأسباب الممكنة والأهداف التي حددت اختيار ترجمة هذه الأعمال. ولذلك تقيدنا بجمع المعلومات الضرورية، إذ وجدنا أنفسنا مجبرين، بسبب قصر هذه الدراسة إلى إهمال العديد من الملامح والمظاهر البارزة في تاريخ الترجمات في قشتالة.

وعلى الرغم من ذلك، استطعنا في هذه المراجعة الموجزة تقويم أنه بغض النظر عن الرغبة الواضحة في اكتساب المعارف، فان طلب إنجاز ترجمات إلى القستالية يكاد أن يكون على الدوام بسبب أهداف سياسية تخص الملك ألفونسو العاشر، وفي مناسبات أخرى تكون أهداف دينية في عصر كان الدين والسلطة غير منفصلين.

فبالنسبة إلى الترجمات التي كان يحث عليها الملك، رأينا بأنها كانت تشكل جزءا من مشروع ثقافي للملك، إذ كان هدفه خلق إمبراطورية جديدة رايتها الثقافة القشتالية والقشتالية بوصفها لغة مثقفة تعبر عن المعارف العلمية الجديدة المأخوذة عن العرب.

وعلى وفق هذا النظام من الأفكار، يمكن الخروج بانطباع بأن أنصار الثقافة والفنون والآداب القشتالية وعلى وجه الخصوص الملك الفونسو العاشر، كانوا يريدون الاستيلاء أو اغتصاب الثقافة العربية وجعلها ثقافتهم. وبالفعل، أصدر الفقيه الإشبيلي المعروف ابن عبدون (القرن الثاني عشر ميلادي) فتوى حرم فيها بيع كتب العلوم إلى اليهود والمسيحيين، لأنهم ينسبونها إليهم وإلى أساقفتهم عند ترجمتها [٣٨]. مع ذلك، في حالة طموحات الملك القشتالي العالم، فقد أشرنا إلى مفهومه بخصوص ثقافة هسبانو–عربية. إضافة إلى ذلك، لا يوجد أدنى شك بأن الفونسو العاشر كان يشعر بتأثير معين بانجذاب نحو الثقافة العربية وحتى أن العديد من الكتاب صاروا يتحدثون عن استعرابه أو تآلفه مع ثقافة المدجن [٣٩].

وأما فيما يخص قرار الملك بالترجمة نحو القشتالية بدلا اللاتينية مثلما كان مألوفا سابقا، فثمة أسباب أخرى ممكنة يمكن أخذها بعين الاعتبار: مثلما نبهنا، فان الطلب على إنجاز ترجمات إلى اللاتينية كان متأت من بقية أوربا، وكان يعزى في جانب كبير منه إلى وجود رجال الدين من بقية بلدان أوربا في الممالك القشتالية. كانت الترجمة عموما في ذلك العصر تسير وفق المنهج التالي: أولا كان المترجم ينقل نصا عربي إلى إحدى اللغات الرومانية

(القشتالية والكتالانية والخ...) ومن خلال الترجمة الرومانية يترجمه أحد المترجمين إلى اللاتينية [٤٠]. وفي اللحظة التي لا تصبح فيها هذه الترجمات موجهة إلى بقية أوربا وإنما هي ترجمات إلى مملكة قشتالة حصرا، يقرر ألفونسو العاشر صرف النظر عن الحلقة الأخيرة من سلسلة الترجمة، مما كان يقتضي ويشكل واضح توفيرا اقتصاديا وزمنيا مهما. وفضلا على ذلك كان المترجمون أنفسهم من قشتالة أصلا. وأخيرا، يقال أيضا إن المترجمين اليهود كان يفضلون القشتالية على اللاتينية لكون هذه الأخيرة هي لغة الصلاة المسيحية[٤١].

ومع ذلك، نحن نرى بأن اختيار اللغة القشتالية كان من الواضح لأهداف سياسية مثلما أشرنا سابقا. والحق عندما تغيرت التطلعات السياسية للملك القشتالي، غير سياسته في الترجمات: إذ بعد سنوات، يقرر ألفونسو العاشر أن هذا النوع من الكتب التي كانت قد ترجمت إلى القشتالية بسبب رغبته السريعة، ترجمت من جديد هذه المرة إلى اللاتينية. كان هذا التغيير في الاتجاه وحسب بعض الباحثين، مرتبطا مع رغبته اللاحقة في أن ينتخب امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة، وهي الامبراطورية التي كانت تمتد في ذلك العصر في أفضل أجزاء أوربا الغربية الوسطى. لذا من المؤكد أن الملك ألفونسو العاشر اعتقد بأنه من المناسب جدا لتطلعاته السياسية الجديدة نشر إنتاجه الثقافي (الكتب المترجمة والكتب الأصلية) في جميع ارجاء أوربا بواسطة ترجمة هذه الكتب إلى اللاتينية[٤٢].

كل ذلك يظهر لنا بأن نوع الترجمات التي يحث عليها الملك القشتالي كانت تتغير وفقا لطموحاته السياسية ووفقا لإصراره على خلق إمبراطورية، أو أن يكون إمبراطورا لإمبراطورية موجودة، جعل من الترجمة أذاة سياسية.

وأخيرا، سمحت جميع تلك الأحداث أن تدخل الثقافة العربية الإسلامية الغرب، مؤثرة بشكل حاسم في الكثير من الأعمال الأدبية في أوربا القروسطية، وهي تنقل إلى أوربا معارفها الواسعة وعمليا إلى جميع المجالات العلمية المعروفة. وبحسب ما تقدم أتفق مع أطروحات الكثير من الباحثين الآخرين بأن الحضارة الأوربية ولدت في جانب كبير منها من الترجمة.

الهوامش:

(١) Alvar, p. ٥٦.

(٢) Vernet, p. ١٦٧.

(٣) Alvar, p. ٥٨.

(٤) Vernet, p. ١٦٧.

(٥) Vernet, pp. ١٤٠–ff; Alvar, pp. ٦٠–٦٣.

(٦) Vernet, p. ٢٥٢.

(٧) Maataoui, p. ١٠٣. في الوقت الحاضر، نعم موجودة "مدرسة طليطلة للمترجمين" بوصفها مؤسسة رسمية مرتبطة بجامعة كاستيا لامنتشا الاسبانية (Universidad de Castilla la Mancha – UCM) ، وتدرس فيها الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الاسبانية كمادة اختصاص.

(٨) Vernet, p. ١٢٦.

(٩) Maataoui, p. ٩٩.

(١٠) وكثيرا ما يخطأ بينه وبين مترجم انجليزي آخر وهو روبرت أوف تشستر (Robert of Chester) (انظر إلى Bobzin, p. ٣٤٤b; Hassan Mustapha, p. ٢٠٣). ومن الجدير بالذكر إن مخطوطة النص الذي ترجمه وكتبه روبرت أوف كيتون نفسه تحفظ في مكتبة الترسانة (Bibliothèque de l'Arsenal) في باريس بفرنسا.

(١١) Vernet, p. ٢٥٩; Pearson, p. ٤٣١b; Sanz Santacruz, p. ١٨٥. وحول أسباب وأهداف هذه الترجمة، انظر McAuliffe, p. ٨.

(١٢) وبهذا الصدد، أنظر الدراسة التي ذكرناها سابقا لـ Sanz Santacruz.

(١٣) Vernet, pp. ٢٥٩–٦٠.

(١٤) Epalza, p. ٦٧ ؛ تم دراسة وتحقيق هذه الترجمة مؤخرا: *Alcorán. Traducción castellana de un morisco anónimo del año* ١٦٠٦, introducción de J. Vernet Ginés y transcripción de L. Roqué Fíguls, Barcelona: UNED, ٢٠٠١.

(١٥) تحديدا، القرآن الكريم : سورة الإسراء، الآية : ١ ؛ وسورة النجم، الآيات : ٧–٩.

(١٦) Vernet, pp. ٤٧٦, ٤٨٥; Echevarría, p. ١٨٩.

(١٧) وحول التشويه المقصود لهذا التقليد الإسلامي، أنظر إلى الدراسة المذكورة لـ Echevarría .

(١٨) Echevarría, p. ١٨٩.

(١٩) Asín Palacios, *La escatología musulmana en la Divina Comedia*, Madrid: Hiperión, ١٩٨٤. .

(٢٠) Vernet, p. ٤٧٤.

(٢١) انظر: *Libro de la Escala de Mahoma*, prólogo de Mª Jesús Viguera y traducción de J. L. Oliver, Madrid: Siruela, ١٩٩٦ ؛ وكذلك Muñoz Sendino, *La escala de Mahoma*, Madrid, ١٩٤٩ .

(٢٢) Vernet, p. ٣٧٨.

(٢٣) Alvar, p. ١٥٦ . يوجد نص محقق عن ترجمة هذا الكتاب إلى القشتالية : Muhammad Ibn ‘Abd Allāh Ibn ‘Umar al-Bayzar (Moamín), *Libro de los animales que cazan (Kitāb al-Jawārih)*, ed. J. M. Fradejas Rueda, Madrid: Casariego, ١٩٨٧.

(٢٤) Menocal, pp. ٢٠١-٢.

(٢٥) Vernet, pp. ٤٥٤-٦.

(٢٦) على الرغم من عدم حفظ الترجمة الأولى إلى القشتالية، تم مؤخرا تحقيق مخطوطتي الترجمة التي أنجزت في القرن الخامس عشر: H. J. Döhla, *El libro de Calila e Dimna (١٢٥١): edición nueva de los dos manuscritos castellanos, con una introducción intercultural y un análisis lexicográfico árabe-español*, PhD Dissertation, University of Zurich, ٢٠٠٨.

(٢٧) انظر Salvador Martínez, p. ٧٦ ؛ Alvar, p. ٩٤.

(٢٨) Menocal, pp. ١٩٧-٨.

(٢٩) Alvar, pp. ٨٣-ff.

(٣٠) Vernet, p. ٤٥٥.

(٣١) Samsó, p. ١٩٩.

(٣٢) Alvar, p. ١٣٤ ؛ Samsó, p. ٢٢٩.

(٣٣) Alvar, p. ١٣٦.

(٣٤) Vernet, pp. ٣٠٩-١٠.

(٣٥) Vernet, p. ٢٩١.

(٣٦) Alvar, p. ١٤١.

(٣٧) Martin, p. ٢٧٦ ؛ Samsó, p. ٢٠١.

(٣٨) Maataoui, p. ٩٩. من ذلك نستشف أن بيع هذا النوع من الكتب كان أمرا مألوفا، وبالعكس هذا الأمر يظهر_عقلية منفتحة أيضا موجودة في الأندلس.

(٣٩) Maataoui, p. ١٠٤ ؛ Alvar, ٣٨. "Mudejar": من العربية " مُدَجّن "، وهو مصطلح يطلق على المسلم الذي يسمح له بالعيش في الأراضي المسيحية دون أن يرتد عن دينه مقابل أن يدفع الإتاوة. ونظرا لاتساع حدود هذا المفهوم، راح يستخدم للإشارة إلى تلك المكونات الثقافية والفنية العربية التي ما زالت تحيا في الأراضي التي فتحها ملوك قشتالة، خاصة فن العمارة.

(٤٠) Maataoui, p. ١١٠.

(٤١) Döhla, pp. ٣٧, ٤٢.

(٤٢) انظر Salvador Martínez, pp. ١٢١–ff ؛ Samsó, p. ٢٢٨.

قائمة المصادر والمراجع:

- ALVAR, Carlos, *Traducciones y traductores. Materiales para una historia de la traducción en Castilla durante la Edad Media*, Alcalá de Henares: Centro de Estudios Cervantinos, ٢٠١٠.
- BOBZIN, Hartmut, "Translations of the Qur'ān", in J. D. McAuliffe (ed.), *EQ – Encyclopaedia of the Qur'ān. Volume Five*, Leiden–Boston: Brill, ٢٠٠٦, pp. ٣٤٠–٣٥٨.
- DÖHLA, H. J., *El libro de Calila e Dimna (١٢٥١): edición nueva de los dos manuscritos castellanos, con una introducción intercultural y un análisis lexicográfico árabe–español*, PhD Dissertation, University of Zurich, ٢٠٠٨.
- ECHEVARRÍA, Ana, "La reescritura del *Libro de la escala de Mahoma* como polémica religiosa", *Cahiers d'études hispaniques mediévales*, ٢٩ (٢٠٠٦), pp. ١٧٣–١٩٩.
- EPALZA, Mikel de, "Especificidades religiosas de la lengua árabe y de sus traducciones", in Mikel de Epalza (coord.), *Traducir del árabe*, Barcelona: Gedisa, ٢٠٠٤.
- HASSAN MUSTAPHA, "Qur'an (Koran) Translation", in M. Baker (ed.), *Routledge Encyclopedia of Translation Studies*, London–New York: Routledge, ٢٠٠٥, pp. ٢٠٠–٢٠٤.

- MAATAOUI, Mohamed el-Madkouri, "Las escuelas de traductores en la Edad Media", in J. I. de la Iglesia Duarte (ed.), *La Enseñanza en la Edad Media. X Semana de Estudios Medievales*, Logroño: Instituto de Estudios Riojanos, ٢٠٠٠, pp. ٩٧-١٢٧.
- MARTIN, Georges, "Los intelectuales y la Corona: la obra histórica y literaria", in M. Rodríguez Llopis (dir.), *Alfonso X y su época*, Murcia: Carroggio, ٢٠٠٢, pp. ٢٥٩-٢٨٥.
- MCAULIFFE, Jane Dammen (ed.), *The Cambridge Companion to the Qur'ān*, Cambridge University Press, ٢٠٠٦.
- MENOCAL, María Rosa, "To Create an Empire: *Adab* and the Invention of Castilian Culture", *The Maghreb Review*, ٣١, ٣-٤ (٢٠٠٦), pp. ١٩٤-٢٠٢.
- PEARSON, J. D., "Al-Ḳur'ān: Translations of the Ḳur'ān", in C. E. Bosworth *et al*. (eds.), *The Encyclopaedia of Islam. New Edition*. *Volume. V*, Leiden: Brill, ١٩٨٦, pp. ٤٢٩-٤٣٢.
- SALVADOR MARTÍNEZ, H., *Alfonso X, the Learned. A Biography*, Leiden-Boston: Brill, ٢٠١٠.
- SAMSÓ, Julio, "Traducciones científicas arabo-romances en la Península Ibérica", in S. Fortuño Llorens *et al*. (eds.), *Actes del VII Congrés de l'Associació Hispánica de Literatura Medieval*, Castelló de la Plana: Publicacions de la Universitat Jaume I, ١٩٩٩, vol. I, pp. ١٩٩-٢٣١.
- SANZ SANTACRUZ, V., "Juan de Segovia y Nicolás de Cusa frente al Islam: su comprensión intelectualista de la fe cristiana", *Anuario de historia de la Iglesia*, ١٦ (٢٠٠٧), pp. ١٨١-١٩٤.
- VERNET, Juan, *Lo que Europa debe al Islam de España*, Barcelona: El Acantilado, ١٩٩٩.